حـــــدود الحق والواجب

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مفتش التعليم الثانوى

إنى أرى أن رق كل أمة لا يقاس بما فيهـا من مسببات الرفاهية والثروة أو معدات القتال إذا كان احترام حدود الحق والواجب غير شائع بين أبنائها . فإنها إذا فقدت هذا الاحترام فقدت العروة الوثقى التى تعتصم بها للمحافظة على مسببات الثروة والرفاهية وللانتفاع بمعدات القتال والدفاع . وإذا عرضنا حياة الأمم وتاريخها الاجتماعى وجدنا أن مسببات الثروة لا تلبث أن تزول إذا كان نظامها الاقتصادى غير مؤسس على احترام حدود الحق والواجب . إنها قد تزدهر فيها الثروة حيناً ، وقد يؤجل لها الخراب المحتوم زمناً ربما طال ، وربما يغرها طول هـذا الزمن الذى تستمر فيه رفاهيتها وثروتها بالرغم من ضياع احترام أبنائها لحدود الحق والواجب ؛ وما طول تأجيل خرابها إلا لما يزال فيها من العناصر الصالحة والقوة المدخرة من عهد الماضى الصالح ، كالقوة التى تدفع المرء إذا نزل من سيارة سائرة فيسير هو أيضاً بعـد نزوله منها ؛ وقد تكون خطوات سيره قليلة أو كثيرة ، ولـكنه إنما يسير إلى الأمام مدفوعاً لا مختاراً . وكذلك الأمة التى تنزل عن احترام حدود الحق والواجب إذا تقدمت فإنما يكون سيرها سيراً آلياً لا فضل لها فيه ، ولا يلبث أن ينتهى ، إلا إذا أدركتها أسباب جديدة تدعو إلى استمرار سيرها . وينبغى ألا نستبطئ أو نستعجل انتهاء تقدم مثل تلك الأمة التى فقد أبناؤها احترام حدود الحق والواجب ، فان خطوات الأمم أطول مدى من خطوات المرء الذى ينزل من سيارة سائرة ؛ وقد تستجد أمور تزيد خطوات سيرها إلى حين ، وكلما كانت السيارة التى ينزل المرء منها أسرع فى سيرها كانت خطوات المرء الذي ينزل منها أكثر .

وهذه الظاهرة تشاهد فى أمور مختلفة من أمور الأمم ؛ فهى إذا فقدت احترام حدود الحق والواجب لم يكن الخراب مقصوراً على حالتهـا الاقتصادية ، بل هو يشمل أيضاً خراب الأسرة وخراب التعليم وخراب كل شىء . وكثيراً ما نرى فى التاريخ جيوشاً أقل عدداً وعدة تهزم جيوشاً أكثر عدداً وعدة من جيوش أمة فقد أبناؤها احترام حدود الحق والواجب . وهذا لا ينفى انتصار الفريق الأكثر عدداً وعدة إذا ظفر الفريقان المتحاربان بقدر متكافئ من احترام حدود الحق والواجب

ولـكن القارئ غير الملم بحقيقة الأمر ربما يظن أن انتصار جيوش الدول الأوربية على جيوش الدول الشرقية كان دائماً بسبب كثرة حظ الجيوش الأوربيـة من عدد القتال وآلاته الحديثة . نعم إن الأمر كان كذلك فى معارك كثيرة ، ولـكنه لم يكن دائماً على هذه الحال . ففى واقعة بلاسى فى الهند كان جيش سراج الدولة أكثر عدداً وعدة ، وكان قد اشترى من الفرنسيين مدافع وأسلحة كثيرة ، ولـكنه — بالرغم من ذلك كله — دارت عليه الدائرة

وفقـدان احترام حدود الحق والواجب يفسد أيضاً أداة الحـكومة وأداة التعليم ، ويفسد صلات أعضاء الأسرة الواحدة كما يوقع بين الأسرة والأسرة ؛ وهذا الفساد وهذا الخراب لا شك من مظاهر التدهور مهما كان فى الأمة من مسببات الثروة أو مظاهر الحضارة والتفكير والأدب . فمن المعروف فى التاريخ أن مظاهر الحضارة والتفكير والأدب والفنون قد تزدهر حتى والأمة على حافة التـدهور ؛ وقد تستمر وهى آخذة فى التدهور فنحسب هذه المظاهر نضوجاً ، وإن كانت نضوجاً فهى نضوج العطن العفن كالفاكهة التى تعطن من كثرة النضج

ولقد كانت فى أواخر مراحل الدول الإغريقية والرومانية والفارسية والعربية مظاهر كثيرة من مظاهر الحضارة والأدب والفنون حتى بعد أن أخذت فى التدهور

ولاشك أن فقدان احترام أبناء الأمة لحدود الحق والواجب يفسد عليهم مظاهر الحضارة والتفكير والأدب ، ولـكن هذا الفساد قد يعمل في السر عمل السوس ولا يظهر فى أعظم أشكاله خطراً إلا فى النهاية . وفى بعض الأحايين لا يحترس أبناء الأمة ولا يأخذون الحيطة والحذر لمنع أسباب التدهور اغتراراً منهم بكثرة المدارس ، وأنواع التعليم ، وكثرة الصناعات ، ورواج التجارة وانتشار التفكير ، وكثرة المؤلفات والمؤلفين ، وازدياد الأرض

المزروعة ، وغير ذلك من مظاهر الحضارة ككثرة المبانى الشاهقة الحديثة ، والشوارع المنتظمة ، والميادين الفسيحة ، والسيارات الفخمة ، ومهيئات الراحة والرفاهية ، ودواعى الاطمئنان وما يجلب اللذة والسرور ...

فإذا تنبه أحدهم إلى أمر ضرورى وهو احترام حدود الحق والواجب وافتقده ولم يجده فى النفوس بالرغم من كثرة المدارس والسيارات والعمارات والمنشآت وغيرها من وسائل الحضارة ، وإذا حذرهم وقال لهم إن افتقاده لا بد أن يؤدى حتماً إما آجلاً وإما عاجلاً إلى التدهور والخراب ـ عدوه متشائماً وخدروا عقولهم تخديراً بأن يحسبوا أن وسائل الحضارة هذه من مدارس وعمارات وميادين وسيارات وغيرها لا بد أن تجلب لنفوسهم هذه الصفة الضرورية وهى احترام حدود الحق والواجب ، إذا كانت حقيقة ضرورية لا غنى عنها إذا أريد تجنب التدهور لأنهم لا يستطيعون أن يتصوروا كيف أن كل مظاهر الحضارة هذه لا تحميهم من التدهور والخراب إذا افتقد شىء غير مرئى ولا منظور وهو احترام حدود الحق والواجب

وهؤلاء الذين يأملون أن تعصمهم المنشآت والعمارات والسيارات والمدارس والميادين وغيرها من التدهور ، لأنها فى ظنهم لابد جالبة هذا الشىء المطلوب ، وهو احترام حدود الحق والواجب ، ربما كانوا أقل ضرراً من الفريق الذى يتبجح ويقول إن الحضارة الحديثة مؤسسة على عدم احترام حدود الحق والواجب ، وإن كان هذا الفريق يصوغ قوله فى قالب آخر فيقول مثلاً : ينبغى ألا نيأس ، فإن التفكير الحديث قد قلب الأخلاق رأساً على عقب ، وألغى الأخلاق القديمة وجاء بأخلاق تناسب رجل المستقبل . أو يقولون : إن الإنسان الذى يريد أن يكون رجلاً ينبغى أن يحرر نفسه من قيود الأخلاق القديمة . كأن الفلسفة الحديثة يمكنها أن تعطل سُنة من سنن الحياة ، وهى سنة تدهور الأمم إذا فقدت احترام حدود الحق والواجب

ومما يدعو إلى الأسف انتشار هذه النغمة بين بعض المثقفين المفكرين الذين كان ينبغى أن يكونوا أكثر فهماً لحقائق الحياة الثابتة والذين يستطيعون أن يروا كيف سرت هذه الحقائق فى الماضى فى حياة الأمم ، والذين ينبغى أن يفهموا أن ما يدعون إليه من الأخلاق الجديدة ماهو إلا عدم احترام حدود الحق والواجب ذلك الاحترام الذى إذا فقد تدهورت الأمة التى تفقده كما يشهد التاريخ

وهناك فريق آخر أكثر صراحة وأكثر أثرة وهم يفهمون حقيقة الأمر ، ولكنهم يقولون : الطوفان بعدنا . ويريدون أن يستفيدوا من فقد احترام حدود الحق والواجب ، وأن يعيشوا بهذه الفائدة قبل الطوفان

وهناك فريق آخر يدرك حقيقة الأمر ، ويحاول أن يزيل الخطر وأن يصلح الأمر ، ولكن بقوة مشلولة ، لأن الله إذا أراد بأمة سوءاً شل إرادتها وقوتها ، وهذه الطوائف الأربع هي الطوائف التى تكون فى الأمة التى فقدت احترام حدود الحق والواجب .

وإذا نظرنا إلى بلادنا وجدنا مظاهر الحضارة من مدارس ومنشآت وعمارات وصناعات وميادين فسيحة وسيارات ، ووجدنا من يظن أن هذه الأمور تعصم من التدهور الذى ينشأ من افتقاد احترام حدود الحق والواجب ، ووجدنا أيضاً طائفة من هذه الطوائف الأربع ، ووجدنا أيضاً ... فقدان احترام حدود الحق والواجب ، والشواهد على فقدانه لا يمكن أن تحصى فهى كعدد الرمال على شاطىء البحر

ولكنى سأقص على القارئ حوادث تدل على أن فقدان احترام حدود الحق والواجب أمر قد تفشى حتى في نفوس أرقى الطبقات.

والحادثة الأولى حدثت عند ما كنت ناظراً لمدرسة ثانوية فى الأقاليم ، ورسب ابن أحد كبار رجال الإدارة وابن أحد كبار رجال البوليس في امتحان النقل . ويكفى أن نقول (أحد كبار الرجال) وكان رسوبهما فى اللغة الانجليزية ، ورفض الأستاذ الانجليزى مراقب تصحيح المادة أن يزيد درجتى الطالبين فى الامتحان ، والقانون يقضى أنه لا يمكن أن تزاد درجة إلا بواسطة مراقب التصحيح ، والنظم الحديثة التى كانت سائدة وقت الحادثة تحرم على ناظر المدرسة أن يزيد هو الدرجة ، فحاولت أن أطلع أحد الكبيرين على حقيقة الأمر ، وعلى حدود حقوقي وواجباتى كناظر مدرسة ، وعلى أن القانون يحرم علىّ زيادة الدرجة وإنجاح الطالبين ، فقال أحدهم : أنا لا أفهم كيف أننا نتصرف فى تطبيق قانون يتوقف عليه حياة الناس ، ويتوقف عليه امتلاكهم لما يملكون ، وأنت لا يمكنك أن تتصرف فى تطبيق قانون (مدرسى) لا أقل ولا أكثر ! ثم ذهب ولم يصدق قولى . والحادثة الثانية تشبه هذه الحادثة تمام الشبه ، ولكنها حدثت فى مدرسة

قريبة من القاهرة ، فقد رسب أيضاً طالب فى اللغة الانجليزية ، ورفض المراقب زيادة الدرجة وإنجاح الطالب ، وأبى أبو الطالب ، وكان من الوجهاء العظام ، إلا أن يحمل لى ضغينة شديدة وأن يثير ضدى غيره من الناس وإن كنت لا أملك وسيلة قانونية لزيادة الدرجة إذا رفض مراقب اللغة الانجليزية أو غيرها من المواد إنجاح الطالب . كما أنى ما كنت أملك وسيلة لمنع مراقب التصحيح من إنجاح الطالب لو أراد إنجاحه ، ورأى أنه يستحق النجاح ، وفى هذا العجز عن منعه من إنجاح الطالب ما يدل على العجز عن منعه من إسقاطه ما دام يستعمل حقه القانونى وما دام الطالب يستحق التقدير الذى قدره له مراقب التصحيح

وقد اتضح لى أن أولياء أمور الطلبة فى مثل هذه الأحوال يريدون أن يوسطوا بعض المشتغلين بالتعليم فيزيد هؤلاء النار أجيجا . وقد ذكرت الآن حادثة ثالثة حدثت فى المدرسة الأخيرة وهى أن طالباً أهان أستاذاً فرفت الطالب بضعة أيام ، فجاء إلىّ والده وقريبه وهما من الأعيان ومعهما ثالث من المشتغلين بالعلم والتعليم ، وحاولوا من غير تلطف بل بوجاهتهم ونفوذهم ، وقبل أن يعرفونى بأنفسهم أن يحملونى على نقض ما أبرمت ، ورأيت أنى لا أملك حق السماح للطالب أن يهين أستاذه ، فرفضت ، فحملوا لى الضغينة وكان أشدهم ضغينة ذلك المشتغل بأمر التعليم . وذكرت حادثة أخرى مثلها حدثت فى مدرسة من مدارس الوجه البحرى ، وتدخل أيضاً أحد المشتغلين بالتعليم بخطاب شفاعة من القاهرة فتلطفت فى رد طلبه ، فحمل لى ضغينة العمر . والذى أعرفه أن الطلبة كانوا قديماً لا ينقمون العقاب المدرسى إذا عرفوا حسن نية موقعه ، ولكن الحال قد تبدلت الآن لسوء قدوة الكبار . فإذا كان بين الطلبة من لا يحترم حدود الحق والواجب فقد لقنوا ألا يحترموه ، بل لقنوا أن احترامه ضعة ومهانة . وكثيراً ما كنت أشاهد أن الطالب قد يتذمر من العقاب ولكنه يعود إلى الصفاء والولاء . أما الشفيع المخذول فإنه لا ينسى أبداً أنه قد رفضت شفاعته ، وهذا كان قبل أن تسرى طباع الكبار إلى الطلبة . ومن عجائب الدهر أن أشد الناس لوماً للطلبة وتعنيفاً لهم وذماً لسلوكهم هم فى كثير من الأحايين أسوأ قدوة للطلبة ، وهم على نفس الطباع والخصال التى يذمونها فى الطلبة والتى سرت منهم إليهم ، وهؤلاء هم الكبار على اختلاف طبقاتهم وأعمالهم .

عبد الرحمن شكرى

١٩ - ١٠

من بريد الشرق

يدهشنى فى حياة الملكة فكتوريا تلك الإرادة التى استطاعت بها أن تفصل بين « واجبها » كملكة تحكم ، وبين «قلبها» كامرأة تحب . إنها كانت مشغوفة بزوجها الأمير « ألبرت » ، ومع ذلك أقصته أول الأمر فى قسوة عن دفة الملك وشئون الحكم ، وهو الرجل الذكى الواسع الاطلاع ، فكانت تدرس هى معضلات الدولة وتتركه هو يقتل الوقت بالقراءة وعزف الموسيقى . آه ! ما أحوجنى أنا إلى مثل هذه المرأة التى تتركنى أقرأ وأكتب وأسمع الموسيقى ، وتنصرف هى إلى حمل المسؤوليات وحل مشاكل العيش ... شىء آخر يعجبنى فى تلك الملكة العظيمة : إنها كانت تقرأ . إنى أحب الملوك والقادة الذين يقرأون . تلك هى الوسيلة التى بها يعرفون حاجات شعبهم . لقد قرأت فكتوريا بعض قصص « ديكنز » التى يصف فيها شقاء الطبقات الفقيرة ، وأحست وهى فى أبراج قصرها ما يعانيه ألوف من البشر يطؤهم ظلم أرستقراطية جامحة بعرباتها الفخمة وخيولها المطهمة ، فأدركت من خلال سطور ذلك الأديب كيف أن فى بلادها عالماً آخر مهملاً يئن من الجوع والبؤس ولا يلتفت إليه أحد . فتركت الملكة الكتاب وقامت صائحة مرتاعة لم يهدأ لها قرار حتى مدت يدها إلى أولئك المتاكيد ، فرفعت عن أعناقهم نعال الفئة الباغية ، وأطلقتهم يعيشون فى هواء الحرية والرخاء كما يعيش الآدميون . فى مصر والشرق أيضاً بنى وبناة ، وظلم وظالمون من جميع الأنواع ؛ وفيهما كذلك فقر وشقاء وجهل وظلام فى كل ركن من الأركان . ولقد يسألنى سائل : أين هو الأديب الذى يصف كل هذا البلاء ، ويصور هذه الدنيا التعسة المهملة التى لم تمتد إليها يد إصلاح منذ أجيال ؟ جوابى على هذا السؤال بسيط : هات لى من يقرأ ، أحضر لك من يكتب . إن الطاهى لا يوجد إلا إذا وجد الآكلون . إن الشرق لن يتغير حتى يعلم قادته كيف يملؤون أدمغتهم بكل ما يمكنهم من فهم حال شعوبهم . إن ربان السفينة لا يركب البحر قبل أن يعرف بعض أسرار الريح والماء ونجوم السماء . فلنرج دائماً ممن يمسك بالزمام أن يمسك أيضاً بالكتاب

توفيق الحكيم